نشر الطوالع

للإمام أبي بكر المرعشي

□ نشر الطوالع
تأليف: محمد بن أبي بكر المرعشي
الطبعة الاولى: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©
الرقم المعياري الدولي: ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٤٢-٢٩-٠
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٤٥٦٧/ ١٢/ ٢٠١٠
❋ تصميم الغلاف محمود أبو زغد، محفوظة باتفاق وعقد ©.

دار النُّور المبين للدراسات والنشر

تلفاكس: ٤٦١٥٨٥٩ ، جوال: ٠٧٩٥٣٩٤٣٠٩، ص.ب: ٩٢٥٤٨٠ عمّان ١١١١٩ الأردن.

البريد الالكتروني: info@darannor.com الموقع على شبكة الانترنت: www.darannor.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or copied in any form or by any means without prior written permission from the publisher.

نَشْرُ الطَّوَالِع

للإمام أبي بكر المرعشي

تحقيق

محمد يوسف إدريس

2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الأنبياء والمرسلين، وبعد

فقد طلب مني أخونا الفاضل الأستاذ الشيخ (محمد يوسف) إدريس أن أكتب تقدمة لكتاب نشر الطوالع الذي ألفه العلامة المرعشي الشهير بساجقلي زاده، وقد اعتذرت أولاً بأن الكتاب معروف مشهور، وبأن عمله فيه مشكور، فأي قيمة لتقدمة خالية من الفائدة، فاقترح مُصِرّاً «أن أكتب تعليقات على الكتاب»، وهو يستحق أن يصرف الإنسان جهده في التعليق عليه لما فيه من فوائد، ويكفي أنه بمثابة الشرح لكتاب الإمام البيضاوي «طوالع الأنوار» في علم الكلام، وهو كتاب حقيق بالاهتمام وجدير بأن ينفق فيه المرء الأعوام، ولا سيما وقد زاده قيمة الشرح العالي الرتبة الذي كتبه عليه الإمام الهمام شمس الدين محمود الأصفهاني (٦٧٥-٧٤٩هـ)، وهو الذي عمل الشرح القديم للتجريد الذي كتبه نصير الدين الطوسي الفيلسوف المتشيّع، وهو كتاب من الكتب المهمة في الكلام، وهو شارح المنهاج الأصوليّ للإمام البيضاوي، وكتب أيضاً شرحاً على مختصر كتاب الطوالع الذي قمت بتحقيقه قبل سنوات، أعني «مصباح الأرواح في أصول الدين» الذي كتبه الإمام البيضاوي مختصراً الطوالع، ولشمس الدين الأصفهاني أيضاً شرح على المختصر الأصوليّ لابن الحاجب، وله كتب غيرها في غاية الأهمية مليئة بالفوائد، وهو غير الأصفهاني الذي قام بشرح «المحصول»، فإن شارح «المحصول» للإمام الرازي هو محمد بن محمود بن محمد بن عياد السلماني الأصفهاني (٦١٦-٦٨٨هـ)، وهو عالم كبير ومحقق شهير أيضاً، وقد يخلط بعض بينهما لأجل الاشتراك في النسبة إلى أصفهان.

وقد نال كتاب الإمام البيضاوي المسمى بالطوالع شهرة عظيمة، وكتبت عليه شروح كثيرة، أشهرها شرح الشمس الأصفهاني المذكور المسمى بـ «مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار»، وهو مطبوع طبعة قديمة، وعليه حاشية دقيقة موجزة كتبها العلامة السيّد الشريف الجرجاني. فجاء اهتمام ساجقلي زاده بهذا الكتاب نتيجة لاهتمام العلماء جميعاً به، فأحبَّ أن يخدم الكتاب بأن يقربه من الأفهام، وذلك لأن الطوالع من الكتب الدقيقة الموجزة، المملوءة فوائدة ودقائق لا يلتفت إليها إلا ذو نظر دقيق، وبها حقيق، وذلك هو شأن الإمام البيضاوي في سائر كتبه، ففيها فوائد جليلة مع اختصارها، ولا يمكن لطلاب العلم في هذا الزمان من أن يفهموا الطوالع وحدَهم، إلا بأن يستعينوا بأحد شروحه، وبغيرها من الكتب الكلامية العالية لكي يدركوا الإشارات التي أودعها البيضاوي فيه، وقد جاء الجهد الذي بذله المرعشي تسهيلاً لهذه الناحية فقال: «ومِنْ أعظمِ ما صُنِّفَ فيهِ: «المواقفُ» و «المقاصدُ»، ومن استطالَها فعليهِ بـ «الطوالع» لعبدِ الله البيضاويِّ، لكنَّه لكثرةِ مطوياتهِ ونهايةِ إيجازهِ، لا تصلُ إليه إلا أيدي الأذكياءِ، وقليلٌ ما هُمْ في كلِّ زمانٍ، ولذلك نسجَ عليه عناكبُ النسيانِ. ولَمَّا كانَ زمانُنَا هذا زمانَ العوائقِ والفتنِ، وتقاصُرِ الفُرصِ والهممِ، اقتصرتُ مِنْ ذلك الكتابِ على ما هو الأهمُّ، فأخذتُ مسائلَه وتركتُ دلائلَه إلا ما هو سهلُ التناولِ، ثمَّ إنِّي أظهرتُ مخفياتِها، ونشرتُ مطوياتِها، وأضفتُ إليها مسائلَ مهمةً مما ذُكر في شرحهِ للأصفهانيِّ وفي حاشيةِ ذلك الشرحِ للسيّد الجرجانيِّ، وكثيراً من إلهياتِ المواقفِ وشرحهِ، وبعضاً منْ مواضعِها الأُخَرِ، ونُبْذَةً من بعضِ الكتبِ، وأدرجتُ فيه ما وردَ على ذهني القاصرِ مُصَدَّرًا بـ «لعل» و«أقول»، وقد أذْكُرُ أن المنقولَ من «شرح المواقف» وهو من «المتن» و«الشرح»، وكلمّا ذكرتُ «المصنف» أردْتُ به صاحبَ «الطوالع»، وبذلتُ جَهديَ في إيرادِ الكلماتِ الواضحةِ بدل المبهمةِ لينتفعَ بكتابي أدنى الطلبةِ. وسمَّيتُه: «نَشْر الطّوالع»، وأجلُّ مقصودي من إتعابِ

نفسي إغناءُ الراغبينَ في المسائلِ العقليةِ عن اشتغالِهِمْ بنَسْخِ الفلسفةِ، واستئناسِهِمْ بقواعدِ الكفرةِ».

فالطريقة التي اتّبعها المرعشي في كتابة «نشر الطوالع» مناسبة لتقريب معاني الكتاب إذن، وقريبة التناول من طلاب العلم، ولهذا فقد جاء اسمه الذي اختاره له «نشر الطوالع» معبراً عن طريقته التي التزمها فيه، فنشر وبسط ما أوجزه البيضاويُّ. ولم يقتصر على المعاني المذكورة في الطوالع بل إنه زاد عليها بعض ما جاء في «المقاصد» و«المواقف» وشرحيهما الشهيرين، وابتعد عن التدقيق في الأدلة لما ذكره من رغبته في التسهيل والتقريب.

وقد أشار إلى سبب آخر في هذه الكلمات التي نقلناها من مقدمته للكتاب، وهو رغبته في إبعاد طلاب العلم الراغبين في المسائل العقلية عن الاحتياج إلى كتب الفلسفة، ولذلك اهتم ببيان المطالب والمعاني التي يتداولها العلماء ويحتاجها الطلاب، والسبب في رغبته في إبعاد طلاب العلم عن كتب الفلسفة ما اشتملت عليه هذه الكتب من آراء مخالفة للشريعة في بعض المواضع، وهذه المواضع يخفى شذوذها عن الشريعة على كثير من العلماء فضلاً عن طلاب العلم، وهذه المنهجية سليمة تماماً ونافعة جداً، أعني ما أعلن عنه المرعشي من أسباب دفعته إلى عمل-تأليف الكتاب، وحقيق بكل حريص من العلماء في كل عصر من العصور أن يقتدي به، ويفعل مثل صنيعه، فإن المتفلسفة ما زالوا ولن يزالوا يخلطون كتبهم بالضّار، ويزوقون عباراته بالترتيبات والتقسيمات التي ينخدع بها الناس فيظنونها لؤلؤاً وهي سراب، فحقّ على أهل العلم أن يخلصوا هذه الكتب من ما اشتملت عليه من مخالفات قادحة في الشرائع، ويقدموا ما اشتملت عليه من فوائد -وإن ندرت- لطلاب العلم، فإنهم أحقّ بها من أصحابها، والعلم الحقُّ طُلبة المؤمن، أينما كان، وما أجدنا أن نستجيب لهذا النداء الذي أعلن عنه العلامة المرعشي ونقوم بمثل صنيعه، فنقوم بعملية نقد الفلسفات

المعاصرة، لنميز بين السقيم منها والمفيد بناء على قواعد راسخة وأنظار دقيقة، لا بناء على أوهام وتأملات شعرية كما اعتاده أهل هذا العصر الغريب الأطوار! ثم بعد أن ننتهي من عملية النقد هذه، فلا إشكال في أن نقدم ما استخلصناه من فوائد بحوثهم نقية غير مختلطة بأخطائهم وما انحرفوا عن الصواب فيه لطلاب العلم من المسلمين، لكي يستفيدوا نقدَ هذه الفلسفات ويكتسبوا المفيد منها، فينالوا الحسنيين. وهذه المنهجية هي التي درج عليها المتكلمون عبر الأعصار المختلفة، فكانوا لا يتأخرون في تنقيح أي بحث يقوم به الفلاسفة، فيأخذون منه الصحيح ويبيّنون السقيم ويقومون بالرد عليه بالأدلة والبراهين الكافية، لا بمجرد التمني والتّشهي. ولا يغيب عن طلاب هذا العلم الشريف ما قام به أعلام أهل السنة في هذا الباب كالإمام الغزالي والإمام الرازي والعضد وغيرهم كثير كثير، فما يشير إليه المرعشي إذن ليس بدعاً من القول، بل هو منهجية للمتكلمين يتبعونها في كل زمان.

وقد أنهى العلامة المرعشي كتابه بما بدأه به من التحريض على الابتعاد عن الانخداع بكلام المتفلسفة المنحرفين عن الشريعة، فقال في آخر كتابه بعد أن جعل التأثر بالفلاسفة سبباً لانحراف بعض الفرق، وهو مصيب في ذلك: «فمن عظَّم الفلسفة، وزيَّن كتبها، وافْتَخر باشتغالها، وعدَّ العراءَ عنها عاراً، واستبدل العلوم الشرعية بها خساراً، كما يُحَسُّ من كلمات بعض الطلبة، فلا شك أنه مُسْتخفٌ بالشريعة، وأخسُّ من الجهلة، مُلْحَقٌ بالإسماعيلية»، وهذا المظهر من الاهتمام بالفلاسفة وكلامهم وتقديمهم على كلام علماء الشريعة من المتكلمين داء أصيب به كثير من المنتسبين إلى الإسلام في هذا الزمان، فتراهم تأثروا في كثير من مواقفهم بما أنتجته قرائح المتفلسفة من الغرب والشرق، ولم يكادوا يعقلون قيلاً ولا يعرفوا سبيلاً لفهم بحوث المتكلمين، ونقودهم على الفلاسفة واستدراكهم عليهم في كثير من المسائل، حتى شاع عند أغلب الأساتذة والطلاب أن المتكلمين لا نفع يرجى من

الاطلاع على كتبهم، إلا كثرة القيل والقال، والجدال بما لا يغني ولا يسمن من جوع، ولعمر الحق إنها تهمة جائرة، تدلُّ إن دلت على جهالة من يركن إليها ويقتنع بها. فإن تدقيقات المتكلمين -عند من يعرفها- تغني عن سخافات المتفلسفة وجريهم وراء أوهام يزعمونها معقولات، أو مغالطات يظنونها براهين، ولذلك فإنا نرى أن الذي يجري وراء كتب الفلاسفة ويهتم بما قالوه فيها وبينوه، ويهمل كتب المتكلمين ولا يكاد يعرف حقيقة أقوالهم ولا تراه يحسن إلا التشنيع عليهم، واللهج ببعض الآراء التي صدرت من بعضهم وردّها عليه علماؤهم من المتقدمين والمتأخرين، يتخذون من هذه الأمثلة والآراء تكأة يمثلون بها ليجعلوها دليلا أمام طلاب الجامعات والدارسين على ما يزعمون من انتكاس علم الكلام وعدم الفائدة فيه! وما يزيدهم ذلك إلا ابتعاداً عن الحق والتحقيق، فضلاً عن إعراضهم عن الإنصاف الذي يقتضي من الباحث الحق أن يتقن فهم مقالة من ينتقدهم قبل أن يتزيا بزي ليس له.

ولذلك فإنّ تحذير بعض العلماء من الفلاسفة القدماء، إنما هو من هذا الجانب، وهذا حق واجب عليهم قاموا به، والخطر كل الخطر في إهمال كثير من أهل هذا العصر واجبهم الذي كان ينبغي أن ينهضوا به، فتركوه وتلبسوا بنقيضه، فتسببوا في انحراف كثير من طلاب العلم عن أهل الشريعة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وقد بالغ الإمام الغزالي جزاه الله خيرا في الرد على الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا في كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة»، وما قام به ابن رشد الحفيد التابع الوفي لأرسطو من الرد عليه بكتاب سماه «تهافت التهافت» وما أكثر ما تهافت فيه مؤلفه، فأكثر ما فيه معاندات ومغالطات أطلق عليها براهين واتّهم الغزالي بالمغلطة والخطأ، وهو المتلبس بذلك، ولعمري فقد ظُلم الغزالي حجة الإسلام من كثير من الناس، بعضهم ينتسبون إليه، ويدّعون محبته، وتراهم يبتعدون عن مهجه، وهذا لعمري من الخيانة الشديدة للعلماء الذين ينبغي بنا أن نخدمهم بخدمة العلم الذي حفظوه لا بتركه

والتحذير منه، أو الابتعاد عنه، وترى بعضهم يحرف أقواله ليميلوا بها إلى ما يحبون هم، وإن أعلن النكير على من قال بها، وبعض الظالمين أعداء للغزالي ولأهل السنة وما أكثرهم في هذا الزمان، تراهم يشنعون عليه ويبالغون في محاولة تخطئته والحط من قيمة أعماله، باتهامه بالمصلحية أو بأنه من علماء السلطة أو بأنه متناقض أو بأنه اتّبع أساليب الجدل وابتعد عن البراهين، وهذا هو شأن المنحرفين عن أهل السنة في كل عصر، لا يملكون إلا نحو هذه التّهم الجاهزة يلصقونها بكل من يعلي صوته بمخالفتهم. وكذلك رأينا الإمام الرازي يقوم بجهود عظيمة يكمل بها ما بدأه الغزالي، فقد قام بعمل شروح وردود على الفلاسفة في كتبه، واهتم الناس بكتبه، لا أعني أهل السنة فقط، بل الفلاسفة أيضاً، إلى درجة أنهم صاروا يعتمدون على شرحه للإشارات والتنبيهات، لمعرفة ما يقرره ابن سينا فيها، وتأثروا بالنقود الكثيرة التي أودعها الرازي في شرحه على بعض كتب ابن سينا مما جعل النصير الطوسي الفيلسوف المتشيع الاثنا عشري يخاف جداً من غزو الرازي على أوكار الفلاسفة، والكشف عن مخابئهم، فقام بحملة مضادة للرازي، فنقد كثيراً من كتبه، ليعيد الثقة بالفلاسفة والفلسفة بعد أن أجهز عليهم الرازي. وهكذا فالصراع لم يزل دائراً بين الفريقين، ولم يزل دائراً كذلك إلى هذا الزمان.

هكذا ينبغي أن يفهم كثير من مواقف المتكلمين والفلاسفة، وبناء على هذا الأساس سبنغي أن تعاد قراءة كتب علم الكلام ويعتنى بها كما تستحقه.

وقد أجاد أخونا الفاضل الشيخ (محمد يوسف) إدريس في اهتمامه بهذا الكتاب، ولو كان لدي وقت متاح لما تأخرت عن التعليق عليه، والاهتمام ببيان بعض ما فيه من مسائل وآراء جديرة بأن يعتنى بها، ولعلنا نكتب يوماً بحثاً مختصاً بذلك، أو يكتبه ذوو الاهتمام.

وندعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب وبصاحبه، وأن يكون هذا لبنة جديدة

من اللبنات التي يعتمد عليها الدارسون في هذا العصر، لإعادة بناء أسس النهضة للإسلام وأهله على النهج الحقّ.

والله سبحانه الموفق.

كتبه: سعيد فودة

وليس لنا إلى غير الله تعالى حاجة ولا مذهب

مقدمة التحقيق

إنَّ العلمَ يورثُ الإنسانَ القدرةَ على التمييزِ والنقدِ والتقويمِ

اعتاد المحققون للتراث الإسلامي أن يستهلوا قبل عرض النص المحقق بالتعريف بالمؤلفين والمصنفين، وذكر عصورهم التي عاشوا فيها، ومشايخهم الذين أخذوا عنهم، وتلاميذهم الذين تلقوا منهم، ومصنفاتهم التي شاركوا بها في العلوم، والبحث في موثوقية ما ينسب إليهم من كتب، والكشف عن درجة تأثيرهم وتأثرهم في الواقع الذي عاشوا فيه، والكلام عن مواقفهم من قضايا عصرهم، وإتباع ذلك بذكر الدراسات التي كتبت عنهم، وبكتابة تحليل لمحتوى الكتاب، وقبل ذلك كله ضبط النص وإخراجه بحيث يقدم للناس أقرب ما يكون إلى مراد المصنف، وهذا بحد ذاته اجتهاد بشري عرضة للخلل والقصور لا يعاب صاحبه إلا أن يكون مقصرا في صدقه وإخلاصه أو في أخذه بأسباب الإتقان.

وعملية التحقيق إذا ما تم ضبطها بقواعد علمية تكون طريقة معتبرة تصور لنا واقع الحال الذي كان عليه المسلمون بشكل عام، والواقع الذي عاش في ظله علماء الإسلام في عصر من العصور بشكل خاص، ويكشف لنا عن جوهر ومنطق الحركة العلمية الإسلامية التي أشغلت العلماء عبر العصور كما يكشف ذلك عن طريقة العلماء في معالجة قضايا عصورهم، ويبرز لنا جهودهم في خدمة العلم، والعلم أهل لأن يخدم لأن بخدمته رفعةَ الأممِ وعزتَها.

ولما كان لكل عصر ميزته وخصيصته في الاهتمام بالعلم فإنه من الممكن أن نقول بأن هذا العصر وبالرغم من قلة عطاء أهله يمتاز بالعناية بكتب التراث حيث ازدهرت حركة الطباعة وتقدمت صناعتها وتطورت تقنياتها، وهذا مما يجعل أهل

الإسلام هم أولى الناس بتوظيف التقدم التقني في خدمة تراثهم وإخراجه على أتم وجه وأكمله، ويجعلهم ينظرون إلى ما هو أبعد من الغايات الربحية والتجارية والتي تكاد تقضي على هذا الأمل، فما أصعب على النفس أن نرى كثيرا من المخطوطات القديمة أو الطبعات الأولى لكثير من الكتب أحسن حالاً وأكثر دقة مما تطبعه العديد من دور النشر المعاصرة، والله تعالى أسأل أن يكتب لتراثنا الإسلامي الزاخر رؤية النور بأتقن تحقيق وأبهى حلة وأزهاها، وأن يثيب القائمين على خدمة التراث أجزل الثواب، فإن خدمة التراث وما تتطلب من وقت وجهد وخبرة ومتابعة للمخطوطات أو النسخ المطبوعة لكتاب واحد لا يقل قيمة عن تصنيف الكتاب نفسه، فإن مهنة تحقيق الكتب قد غدت عملية ذات قواعد وأدبيات ألفت فيها المؤلفات، وهي تفتح آفاقا للبحث والدراسة يكشف بها عن كثير من ملفات التاريخ العلمي عند المسلمين، والله يوفقنا جميعا إلى ما فيه المصلحة لديننا في الدنيا والإثابة على ذلك في الآخرة.

هذا وإن لكلمة «الدين» استعمالين، خاص يقصد به خصوص العقائد الدينية، والتي هي أصل دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأساس بعثتهم، وهي المراد بالدين الواحد من لدن آدم عليه السلام إلى بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣]، والحكمة من تكليف الله تعالى الناس بعقائد الإيمان استقامة المعتقد، وحفظ العقول من التلبس بالمعتقدات الباطلة التي لاتصلح أن تكون عقيدة راسخة في النفس البشرية، وحفظها من التعلق بالأفكار الفاسدة، وتحرير العقل من الأوهام والخرافات التي تنتجها العقول الفلسفية والآديولوجية وحمايته من بدع أهل الأهواء الذين يتخذون من النصوص الشرعية مرمى لمقاصدهم وغاياتهم الفاسدة، المخالفة

فيهم أصل والوفاق لا يخطر لهم على بال.

والأصل في وظيفة (الدعوة الإسلامية) أن تدعو الناس أساسا إلى عقائد الدين هذه، فهذه هي منطلق الدعوة الرئيسية وهي أيضا هويتها والموجه لها باستمرار، فإنه من غير المعقول أن نتجاهل ذلك الأصل والمقصد الإلهي العظيم لنحرف عجلة الدعوة الإسلامية عن مسارها ليصير مآل الدين وحظه عند قادته ودعاته إلى كونه وسيلة لتكثير سواد فكر حزبي أو لمنافسة الآخرين في لعبة التسابق على المصالح والمكاسب السياسية وغيرها، فإن هذا مما لم نر نبياً ولا رسولاً دعا الناس إليه، ولا أدخل الدين وأتباعه في صراع فيه مع مصالح وتوجهات القوى المخالفة له في المجتمع، وخير مثال يذكر على ذلك أن المشركين لما عرضوا على النبي عليه الصلاة والسلام التفاوض على «المعتقد» بأن يعبدوا هم ربَّ محمدٍ سنةً وهو يعبد أربابهم سنة ثم ليتقاسموا على إثر ذلك المطامع المادية، لم ينتظر الله تعالى من النبي أن يفكر ويتخير في هذا الشأن مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أن يجعل الدين محلا للمساومات أو المفاوضات، فأنزل الله البت في بطلان مثل هذا الموقف من «المعتقد» من خلال سورة «الكافرون».

فالقضية أن الانتصار للعقائد أصالة وللأحكام الفقهية والأخلاقية تبعاً مما يمهد ويقود لاضمحلال قوى المجتمع المعارضة لها وفقد الثقة بها وليس من المنطق أن ننتصر أولا لتحصيل مناصب المجتمع بالتماس الأعذار الدعوية المختلفة في ضوء الرؤى والمشاريع الدعوية الخاصة ثم لتقودنا هي إلى العقائد؟! فالعملية حالتئذ تكون عكسية، حيث تصير القناعة المتبعة أن التوصل إلى الحق لا يكون إلا بالتوسل بالوسيلة الفاسدة، وإن هذا مما حذر النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين عامة والدعاة خاصة من المصير إليه.

إن هذا الحال الدعوي البائس والمتدهور مما يدفع المسلمين إلى التفكير بجد في

إصلاح الدعوة الإسلامية التي أصابها الكثير من الضياع والوهن حتى غدت في كثير من صورها غير مقنعة ولا معبرة عن الإسلام ذاته، ولا تليق بعظمة هذا الدين ولا بمستوى الأصول العلمية التي وصل إليه علماء الإسلام، وإن البقاء على هذا الحال يفرز تطبيقات مختلة في كافة الميادين التي يمارسها المسلمون.

وإذا كانت الغثائية هي الحال السائدة في ساحة الفكر الإسلامي فما ذلك إلا لأن الدعوة تخلق كما أن الإيمان يخلق فيحتاج كل منهما إلى التجديد وبعث الروح، وذلك من خلال التنبه إلى الأصول التي يقوم عليها الدين واتباع المنهج الذي يظهر قطعيتها العلمية، بدلا من الدعوة إلى العقلية المصلحية لتكون حالة ذهنية سائدة والتي ما فتئت تمزق أصول البحث العلمي الإسلامي كما قرره علماء الإسلام وتفكك منظومة ما بناه أئمة الإسلام من عقلية اجتهادية عبر العصور.

وأرى أنه يجب أن تنتهي القطيعة بين قادة الفكر الدعوي المنغمسين في الدعوة الحركية إلى الرمق الأخير في سبيل تحقيق المصلحة الحزبية وما أوجدته لنفسها مرجعية تشريعية مستقلة وبين العلماء اللذين لم يجدوا سبيلا لخدمة الدين إلا عبر الأجهزة الرسمية في الدول التي يعيشون فيها.

إننا ننظر بعين التأمل في افتخار جميع الأمم بما قدمه أسلافهم من غث وسمين بإعجاب، وفي المقابل إننا نفجع من حال دعاة النهضة الإسلامية الذين يحاولون التنصل من علوم السابقين، حتى وصل الحال بالبعض إلى رمي علوم العلماء بأنها سبب التخلف الذي نحن فيه، في حين يذهب بعض آخر إلى أنه يريد إصلاح الفكر الإسلامي بميزان النظريات والفلسفات الأجنبية، وهذا لا يقل خللاً عمن يربط الإسلام بالذوات والأسماء لا بالأدلة والأصول ثم بالمذاهب المعتبرة، وقد لخص لنا الإمام أبو إسحاق الشيرازي هذه الآفة الفكرية فقال في كتابه الأصولي «شرح

اللمع»[١]: «... والأدلة لا توضع على حسب المذاهب بل توضع على حسب الأدلة لأن الأدلة أصول والمذاهب فروع تتبع الأصول لا أن الأصول تتبع الفروع...».

وجاء أبو حامد الغزالي من بعده ليبين عن أثر هذا الخلل في الفكر والعلم فقال في كتابه الأصولي «المنخول من تعليقات الأصول»[٢]: «... ولا مطمع في الإحاطة بالفرع وتقريره والاطلاع على حقيقته إلا بعد تمهيد الأصل وإتقانه إذ مثار التخبط في الفروع ينتج عن التخبط في الأصول».

وعليه فإن التوظيف الباطل للدين وهو التوظيف السائد في هذه الأعصر مما ينبئ عن ضياعٍ للأصول والفروع معا، وللمدارس والمذاهب، وللنظريات التي تخرج عليها المسائل والاجتهادات، وللمنهج العلمي بكليته، وإن هذا مما يهيئ الأجواء لتحويل الدين من دعوة إلى العقائد الحقة الصحيحة إلى جعله مظلة لنشأة العصبيات الفكرية الإسلامية، وإن شئت فقل لنشأة «العشائر الإسلامية» لتطغى على إثر ذلك المصالح والرؤى الخاصة -وإن كانت ناشئة عن صدق نية وإخلاص عمل- والتي أول ما تضرب في الحقيقة الإسلامية الحجية والمرجعية والضوابط العلمية التاريخية[٣]، والنتيجة من بعد ذلك كله ضياع الدعوة وتشتتها بين الذين فرقوا دينهم شيعا وجعلوا القرآن بينهم عضين.

هذا ولما تفطن السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى للأخطار المحدقة بالعالم

---

(١) ص٢/ ٨٧٦.

(٢) ص٥٩.

(٣) هذا هو عمل كثير من الساسة الإسلاميين في الشرع في هذا العصر، وانظر أيضا عملية التوظيف الفاسد للنصوص الشرعية عند المجسمة من السلفيين والوهابية وجمودهم في الاحتجاج عند مجرد ألفاظ النص كيف أفقد الأمة قيمة العلماء الذين نصر الله بهم الإسلام عبر العصور فماذا يا ترى ينفع عقل الشافعي أو الجويني أو الرازى أمام مسلمين لاحجة عندهم إلا ذات النص دون وعيه من خلال قواعد العلوم، هكذا تم اختزال جميع العلماء وإزاحتهم من طريق العلم، وصار النص وسيلة لمخاصمة العلماء، وتضليلا للعامة، وألعوبة في أيدي الجهلة، وصار الحق هو ما قاله فلان لا ما نطقت به القواعد والأصول.

الإسلامي دعا إلى ما يعرف بالجامعة الإسلامية فتنبه الغربُ إلى خطورة ما قد تفضي إليه الوحدة الإسلامية فدعا في مقابل ذلك إلى ما يعرف بالعصبية الجنسية الإسلامية من جهة وإلى العصبية العربية من جهة أخرى لتساهم الأولى في حرف أنظار المسلمين عن أصل الطريق الذي يجب أن تسير فيه عجلة الدعوة الإسلامية أي من كونها دعوة إلى مبادئ الدين إلى كونها دعوة إلى عصبية دينية، ولتساهم الثانية في فك الرابطة بين العرب وبين الإسلام، لعجزهم عن فصل العروبة والعربية عنه، ولقد تم تكريس ذلك بتأسيس الجامعة العربية، ولما كان من الصعوبة بمكان أن تسلخ العروبة عن هوية أبناء الأمة، وبدلاً من أن تعود الأمة إلى دينها، اعتذرت عن ذلك بإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، فتكرس الانقسام من جهة أخرى، وإن كنا نشكر ما تقدمه هذه المنظمة من خير للمسلمين.

ونشأ في ظل ذلك مدرستان إصلاحيتان، مدرسة الإصلاح القومي والوطني ومدرسة الإصلاح الديني، وإن شئت أضفت إليهما مدرسة الحكم المصلحي المطلق المستبد، وبدلا من أن تكون نتاجاتها إصلاحية جاءت نتاجاتها نقضاً للأصول، وهدما للفروع، وتنكرا للتاريخ حتى وصلت الأمة إلى حالة التعري التام في شأنها الرسمي عن جميع مقومات الأمة والتي لا نهوض لها بدونها.

إن الثقافة الدينية التي تغذى بها النابتة الإسلامية من خلال المناهج التربوية الرسمية ثقافة تعجز الأفراد عن أن يملكوا ملكة التمييز بين الحق والباطل والغث والسمين فيما يلقى عليهم من قضايا دينية، ومقولات فكرية، وما ذلك إلا لأن الغذاء الثقافي الديني المقدم لشباب الأمة لا يقوم على تعليمهم منطق ومنهج البحث العلمي كما وضعه علماء الإسلام، لأن تحقيق ذلك يعني بروز المرجعية الشرعية للأمة، وهذا يعني بداية سلوك الأمة في مشروع تستعيد به الأمة هويتها وشخصيتها، وهذا ما لا يأمله لا الإصلاحيون ولا المستبدون.

تخرج عليها.

وأما اليوم فقد حلت استراتيجيات (التفكير العشائري) محل العلوم الشرعية، ثم وظفت العلوم وطوعت لتكون خادمة للقبائل الإسلامية، حتى صارت الأقوال العقائدية والفقهية تخضع لقانون التفرد الذي هو روح العصر ولمبدأ الانتقاء بحسب ما يصلح منها للرؤى والمصالح المختلفة، ولقد قال الإنكليزي ملنر، وهو واحد من أساطين السياسة الإنكليزية، إن من أهم ما يمكن أن ننجح به مع الإسلام تحويله إلى عصبية دينية دون أن يكون دعوة إلى عقائد، ولقد تم ذلك بشكل كبير على يدي جمال الدين الأفغاني، كما أشار إلى ذلك صاحب التعليقات على حاضر العالم الإسلامي، فكان من نتاج ذلك غرق الأمة أجمعها في بحر هذه الحيرة العمياء.

من خلال هذه النظرة المقتضبة إلى واقع الدعوة الإسلامية نستطيع أن ندرك أهمية إحياء الدراسات والبحوث التي قدمتها العقول الإسلامية طوال القرون الماضية، وندعو الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل على تواضعه وقلته.

نبذة عن كتاب نشر الطوالع ومصنفه:

مصنف الكتاب الذي بين أيدينا واحد من أعلام الأمة المحققين لعلوم الأوائل، المدققين النظر فيما بحثوه من عويص المسائل، وقد حوى كتابه هذا خلاصات ما انتهى إليه من سبقه من كبار علماء الأمة، ولا سيما الإمام البيضاوي في «طوالعه»، والعضد الإيجي في «مواقفه»، والسعد التفتازاني في «مقاصده»، وهي في حقيقتها كتب ألفت مادتها وركبت عباراتها بالاستناد إلى ما قدمه كبار علماء الأمة من أبحاث جرارة وفياضة في علوم المنطق والأصول والعقائد والكلام، كابن مجاهد وأبي الحسن الباهلي وأبي إسحاق الإسفراييني وابن فورك وأبي منصور البغدادي والقاضي الباقلاني وأبي المعالي الجويني إمام الحرمين وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي والإمام الآمدي والإمام ابن الحاجب. وفي مقدمة هؤلاء الإمامان الكبيران أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي، إماما أهل السنة، اللذان وضعا الأصول الأولى المؤسسة لعلم الكلام السني، واللذان افتتنا أيما افتنان في ترجمة جهود من سبقهما من علماء أهل السنة خصوصا في علمي العقائد والكلام بتأسيسهما نظرية ومنهجية متكاملة في النظر في أصول الدين، بالإضافة إلى ما بذله تلاميذهما الذين انتشروا في البلاد يعلمون الناس المنهج الذي أسسه الشيخان، والذي لاقى قبولاً ورضاً لدى عامة أهل السنة في كل البلاد، وكان ذلك الجهد العظيم هو الذي هيأ الساحة لمن جاء بعدهم من العلماء بإتمام البحث والنظر في مسائل الأصول حتى وصلوا به إلى أوج نضجه.

وعلى سنن هؤلاء وجهودهم اشتغل كبار المحققين المتأخرين كالعضد الإيجي، والسعد التفتازاني، والشريف الجرجاني، والإمام أبي عبد الله السنوسي، وجلال